علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي

١٥١٠ - ١٦٥٩

د. زين العابدين زريوح

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

كاتب وباحث في التاريخ الحديث

العرائش - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه — الباحث: زين العابدين زريوح

تخصّص التاريخ المغربي الحديث — إشراف: أ. د. المصطفى البوعناني

التاريخ والمجتمع بالحوض الغربي للمتوسط — لجنة المناقشة عبد العزيز بل الفايدة رئيسًا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة — د. محمد الغرايب مقررًا

جامعة ابن طفيل — د. حفيظة الدازي عضوًا

المملكة المغربية ٢٠١٨ — د. عبد الإله الدحاني عضوًا

كلمات مفتاحية: المهمشين، الدولة السعدية، العامة والمخزن، التاريخ الاجتماعي، الأمراء السعديون

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055407

مُقدِّمَةُ

شهد التاريخ الاجتماعي والتاريخ المنظور إليه من أسفل في المغرب عدة تطورات أسهمت في بروز مواضيع جديدة في البحث التاريخي، ومنها موضوع العوام، الذي تزخر المصادر بمعطيات تاريخية مهمة حوله، لما لهذه الفئة من دور تاريخي كبير داخل المجتمع. ومن أجل الكشف عن بعض الحقائق التي حاول التاريخ الرسمي إخفاءها عن قصد، أو بشكل عفوي في حالات أخرى، بفعل اعتماد المؤرخين القدماء على رواية الأحداث التاريخية بطريقة سردية تتمحور حول تاريخ الحكام والحروب أساسًا، في تغييب صارخ لطبقة العامة، والجوانب السلبية لعلاقة هذه الطبقة بالسلطة السياسية. وعمل هؤلاء الباحثون على تفادي تلك الهفوات مستعينين بالمصادر الكلاسيكية نفسها، بإعادة قراءتها بموضوعية استئناسا بوثائق أخرى متنوعة تحتوي على مادة تاريخية مفيدة، للخروج بنتائج مرضية تمكن من معرفة أحوال طبقة العامة وعلاقاتها ببقية فئات المجتمع، وخاصة علاقتها بالسلطة، رغم انحياز المصادر التقليدية لهذه الأخيرة على حساب فئات العوام التي ظلت مهمشة سواء من طرف المصادر أو السلطة السياسة نفسها. ومن هنا تظهر ضرورة التطرق لطبقة العامة وعلاقتها بالطبقة الحاكمة في تاريخ المجتمع المغربي، عبر عملية استنطاق الوثائق التاريخية الرسمية والمعارضة والأجنبية وغيرها من أنواع النصوص، بمساعدة بعض الدراسات التي اعتمدت في أسلوب بحثها -بشكل كلي أو نسبي - حسا اجتماعيًا أو سياسيًا، أو هما معًا.

التعريف بموضوع وسياق البحث

يأتي موضوع هذه الأطروحة (علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي ١٥١٠-١٦٥٩م) من أجل إلقاء الضوء على وضعية العامة كطبقة من المهمشين في علاقتها بالمخزن -كمؤسسة سياسية ذات خصوصية مغربية-على امتداد عمر الدولة

السعدية بالمغرب ما بين سنتي (٩١٥-١٠٦٩هـ/١٥١٠-١٦٥٩م) وفق توسع أو انكماش نفوذ أمرائها ضمن المجال، هذه الفترة التي لا تزال تفتقر إلى أبحاث مستفيضة من هذا النوع، على عكس فترة العصر الوسيط التي عرفت تقدما ملموسا في هذا المضمار على يد مجموعة من الباحثين. حيث يمكن اعتبار العصر السعدي فترة مواتية لدراسة هذه العلاقة التفاعلية بين العامة والسلطة، في ظل ظرفية تاريخية عرفت عدداً من الأزمات والتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكذا التأثيرات الناتجة عن بداية بروز التفوق الأوروبي خلال الفترة الحديثة. ويبقى المجتمع السعدي نموذجا للمجتمعات الإسلامية التي ارتبط تاريخها بظاهرة تهميش العوام من طرف السلطة السياسية والمؤرخين التقليديين، وبالتالي تأتي الحاجة الملحة لمثل هذه الأطروحة للكشف عن الغموض الذي أحاط بجوانب مهمة من طبقة العامة وعلاقتها بالمخزن السعدي.

هدف وإشكالية البحث

إن الهدف الذي سطر لهذه الدراسة هو محاولة رفع النقاب عن العلاقة الغامضة بين العامة والمخزن، ومختلف أوجه تطوراتها وتفاعلاتها على أصعدة متعددة خلال الفترة السعدية، إذ ظلت فئة العامة وأحوالها مجهولة إلى حد كبير، رغم أنها كانت ولا تزال تشكل القسم الأكبر من السكان.

إذ إن البحث في ثنايا التاريخ المغربي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي والعسكري في الفترة الحديثة أو غيرها، لا يكتمل إلا بالنظر إلى التاريخ من الأسفل، أي من بالاهتمام بأوضاع العامة ودورها في شتى تلك الأوضاع الحضارية، لاسيما وأنها تعتبر جزءا لا يتجزأ من المجتمع وعاملا من عوامل تكوينه الأساسية. فلسنا بحاجة لإبراز قيمة طبقة العامة والشرائح المكونة لها، إذ يكفي للدلالة على ذلك أنها كانت تشكل عصب عمليات الإنتاج في هذا المجتمع ومحركا من أهم محركاته السياسية. فمن هذه النقطة يبدأ تشكل علاقتها بالسلطة السياسية السعدية وهو ما قد يمكن من الوصول إلى استنتاجات مفيدة، إضافة إلى حقائق وتصورات تاريخية جديدة متعلقة بفترة الدراسة، على ضوء إعادة قراءة هذه العلاقة المطبوعة بنوع من الغموض بسبب الغطاء التاريخي الرسمي، هذا التاريخ الذي حاولت جاهدا العمل على الكشف عن بعض جوانبه الخفية.

فهذا البحث يمثل دراسة حول قضية تاريخية بدأت تأخذ مكانتها لدى الباحث العربي والمغربي المعاصر، وهي قضية العامة وما لاقته من تهميش سلطوي طال شرائح واسعة من المجتمعات الإسلامية، ومن بينها المجتمع المغربي الحديث -وبالتحديد هنا- المجتمع السعدي. إذ لا مناص من أن هذه القضية تشكل حلقة في نسق التاريخ المغربي، ولابد من إيلاء العامة وعلاقتها بالمخزن أهمية في البحث والدراسة.

تقوم الإشكالية الرئيسة للبحث على محاولة رصد مختلف أوجه وتطورات وتفاعلات علاقة العامة -ككل واحد وكفئات - بالمخزن السعدي على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية وغيرها خلال الفترة الممتدة ما بين ١٥١٠-١٦٥٩م. وتتوزع هذه الإشكالية على مجموعة من التساؤلات الفرعية وفق الشكل التالي:

- فما هي رؤية مصادر الفترة السعدية لكل من العامة والمخزن؟ وماذا نعني بمفاهيم العامة والمخزن؟ وماذا عن حال المجتمع السعدي وفئتي العامة والمخزن ضمنه؟

- كيف كانت وضعية مختلف فئات عامة العصر السعدي؟ وما هي طبيعة العلاقة التي جمعتها بالمخزن كفئات، ثم كطبقة واحدة على ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية والقضائية والدينية والثقافية والعلمية؟

- وأين تجلت أبرز تطورات تفاعل العوام مع أمراء المخزن السعدي وحكمهم تبعا لتوالي مراحل عمر الدولة؟ وما هي أهم حركات وانتفاضات العامة ضد هذا الحكم؟

منهج وطريقة الاشتغال على البحث

اشتغلت في هذه الدراسة اعتماداً على المنهج الاجتماعي التاريخي كمنهج رئيس للبحث[1]، إلى جانب أسلوب النقد والتحليل، وكذا الموضوعية العلمية التي يجب أن يتميز بها أي بحث أكاديمي جاد. وبهدف كشف خبايا فترة الدراسة على ضوء الموضوع المسطر لها، والمؤثرات التي طبعت هذا المسار التاريخي على مختلف المستويات، وخاصة على المستوى الاجتماعي وأبعاده السياسية أو العكس. كان لا بد من العودة أولا وقبل كل شيء إلى التراث المتوفر من كتابات تاريخية سعدية، حتى يتسنى لنا تقييم محتواها، وتتبع منهج أصحابها في التدوين والتحليل، والكشف عن خلفياتهم السياسية والاجتماعية التي أثرت في أسلوبهم التاريخي، حتى نجد تبريرا وطريقة للانتقال إلى مجالات أكثر خصوبة وعطاء فيما يخص التأريخ للعامة وعلاقاتها بالمخزن السعدي.

وإلى جانب تحليل وإعادة النظر في طريقة التعامل مع المصادر الكلاسيكية، وتفحص ما احتوته من إشارات غير مقصودة بين سطورها، توجب السعي كذلك إلى البحث عن مصادر جديدة تفيد في مثل هذا المجال من البحث التاريخي، عن طريق الاستعانة ببعض الوثائق والنصوص المهمة كتراجم المتصوفة ومناقب الأولياء، وكتب الرحلات، والنوازل الفقهية، إلى جانب بعض المصادر التي يمكن أن تدخل ضمن خانة كتابات المعارضة، وكذا المصادر الأجنبية، رغم ما احتوته هذه الأخيرة من معطيات ذات خلفيات سياسية أو دينية توجب التعامل معها بحذر. مما يمكن بالتالي من التوصل إلى دراسة أوسع وأكثر تكاملاً لفئات العامة وعلاقاتها بالمؤسسة المخزنية السعدية، وتجديد الرؤية التاريخية عن هذه العلاقة.

ورغم ما تعاني منه الخزانة التاريخية المغربية من نقصان فيما يتعلق بالدراسات النقدية لمصادر التاريخ الرسمي السعدي وتغييبها للعوام، إلا أن هذا لا ينفي وجود بعض الإشارات حول الموضوع في عدد من المؤلفات والأبحاث، والتي لمحت إلى هذه المسألة، وحاولت إنصاف العامة في إطار بعض المواقف أو الأحداث التاريخية التي حملت طابعًا اجتماعيًا وسياسيًا، والتي أمكننا الاستفادة منها.

لقد عملت خلال هذا البحث على استنطاق مجموعة من المصادر والمراجع، من أجل الاستفادة مما احتوته من ذكر لفئات العامة، وإشارات حول علاقتها بالسلطة السياسية السعدية، ثم محاولة تحليلها على ضوء عدد من الدراسات التي توفرت بين أيدينا. دون الجزم بالقدرة على الإحاطة بكل فئات العامة، أو الحكم أن كل هذه الفئات قد تعرضت للتهميش، مادام أن بعضها حظي بنصيب من الحظوة والمكانة. ومع ذلك وجب التعرض لكل ما يمكن أن يتيحه لنا البحث التاريخي من أجل التمكن من صياغة مقاربة متكاملة لوضعية طبقة العامة وفئاتها، ورصد علاقتها بالمخزن السعدي في انتقالها ما بين مد وجزر بين مختلف أزمنة وأحداث فترة الدراسة من أجل الوصول إلى استنتاجات ذات فائدة.

الدراسات السابقة في الموضوع

من البديهي أن يصعب على الدراسات الحديثة الإحاطة بكل جوانب علاقة العامة بالسلطة في التاريخ المغربي بعد مدة طويلة من سيادة التوجه التاريخي الرسمي، والذي عمل على إقصاء العوام وعوالمهم الاجتماعية والثقافية والسياسية من الذكر، وإن تم استحضارهم فبطريقة تخدم مصالح السلطة وتأخذ بوجهة نظر الفئة الحاكمة دون معرفة موقف واضح للجزء الأكبر من المجتمع الذي تشكله العامة. ورغم ظهور عدد من الدراسات المغربية التي اهتمت بالتاريخ الاجتماعي عمومًا وبتاريخ العوام أساسًا، والمتأثرة بالاتجاه القائم على تجديد بعض جوانب التاريخ الإسلامي وإعادة قراءته من زوايا جديدة ومختلفة عن التي سبق تناوله بها، بعيدًا عن القراءة التقليدية للنصوص وعن رؤية مؤرخي البلاط، وذلك بالتطرق للعوام وحركاتهم وعلاقاتهم بالسلطة بشكل موضوعي وبنظرة حيادية عن طريق إعادة قراءة المصادر الرسمية واستقراء مصادر أخرى ككتب التراجم والرحلات والنوازل وغيرها[٢]. إلا أن هذه الدراسات على أهميتها اقتصرت بالجملة على العصر الوسيط[٣].

وعلى العكس من ذلك، ما يزال البحث في تاريخ الطبقات الدنيا من المجتمع وتفاعلاتها السياسية خلال الفترة الحديثة بالمغرب، وضمنها الفترة السعدية، ضعيفا اللهم إذا استثنينا بعض الدراسات التي حاولت معالجة علاقة السلطة –أي المخزن- بالمجتمع ككل، أو بمكون معين من المجتمع كالقبائل، أو ضمن نطاق جغرافي محدد[٤]. كما نجد دراسات تميزت بنوع من العمومية[٥]. ونفس الأمر ينطبق على باقي عمر الفترة الحديثة[٦].

لكن، ظلت الفترة السعدية مفتقرة إلى أبحاث حول طبقة العامة وعلاقتها بالسلطة، على اعتبار عدم اهتمام نصوص الفترة –هي الأخرى- بأحوال العامة وتأثيرها في سير الأحداث وضعف المعلومات حول عناصرها باستثناء بعض تحركاتها السياسية[٧]. وذلك رغم وجود دراسات مهمة اقتربت بنسب متفاوتة من تصور موضوع البحث، كأطروحة **"الفقر والفقراء في مغرب القرنين ١٦-١٧م"** للباحث محمد استيتو[٨]، التي حاول من خلالها إثارة الانتباه إلى هذه الفئة من العوام، التي اعتبرها من "المغيبين" أو "منسيي التاريخ" في إستطغرافيتنا، وتسليط الضوء على أصناف من الفقراء خلال هذه الفترة التاريخية لتشجيع الباحثين على النبش في تاريخ باقي فئات العامة[٩]. إلى جانب بعض الدراسات التي لم تخل من أهمية، مثل دراسة إدريس كرم حول **"ثقافة العامة في كتابات فقهاء المغرب خلال القرنين ١٠ و١١ هـ"**، ودراسة أحمد الوارث حول **"تصوف العوام خلال القرنين ١٧ و١٨م التيار الشرقاوي نموذجا"**. وهناك مَنْ تناول فقط علاقة فئة معينة من العامة بالمخزن السعدي، مثل أطروحة **"اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية"** لمحمد الباكوري.

نستنتج من هذه الدراسات أنها اقتصرت على جزء أو فئات معينة من العامة، أو على جانب من واقع هذه الطبقة، دون الإحاطة بكافة حيثيات العلاقة بينها وبين المخزن السعدي. هذا الإشكال الذي سعيت لتجاوزه في هذا البحث، بغية إعطائه أهمية تاريخية وعلمية أكبر في هذا المجال من الكتابات.

مصادر ومراجع البحث

تم الاعتماد في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة توزعت على الشكل التالي:

- **المصادر السعدية التقليدية** التي وضعت في كنف السلطة الرسمية أو تأثرت برؤيتها وبالسياق العام للظرفية التاريخية، على غرار عدد من الحوليات والآداب السلطانية. بحيث سارت هذه المصادر تقريبا في نفس مجرى مجمل المصادر الإسلامية والمغربية، إذ تميزت بطابع السرد، معتمدة النمط التقليدي في رواية الأحداث، في غياب كبير للتفسير والتعليل مع الانحياز للسلطة الحاكمة وتهميش العوام وفاعليتهم التاريخية[١٠].

فقد ركزت المصادر السعدية، وخاصة الرسمية منها، على التأريخ لسلاطين الدولة الحاكمة ومحيطهم وإنجازاتهم، تمجيدا لذكرى هؤلاء ورفعا لمنزلتهم في نظر رعاياهم والأمم الأجنبية أيضا، حيث تنافس المؤرخون الرسميون في ذلك رغبة في الأعطيات الجزيلة التي يقدمها السلاطين، تحفيزا لهم أو طمعا في التقرب من هؤلاء السلاطين والارتقاء في الوظائف المخزنية، مما جعل هذه المصادر بعيدة عن الحقيقة ومجانبة للنزاهة والصدق[١١]، لأنها ما فتئت تظهر تحفظها في سرد أخبار السلاطين والتحيز لهم وإخفاء أسرار البلاط وما يكتنفها من دسائس ومؤامرات، وكذا الحقيقة عن غاراتهم وتحركاتهم العسكرية ضد الحركات المناوئة لهم[١٢]، مهملة عن قصد التاريخ الاجتماعي للعوام، مراعاة للصراع الخفي والصريح بين السلطة الحاكمة وبعض الزعماء الدينين المتمثلين في شيوخ الزوايا والطرق الصوفية وما يربطهم بالعامة من نفوذ واسع[١٣]. بحيث أجمعت معظم مصادر العصر السعدي الأكثر أهمية وشهرة على تسفيه العوام وتحقيرهم ومهاجمة حركاتهم، وإن اختلفت التعابير ومواقع أصحاب هذه المصادر على غرار باقي المصادر الرسمية الإسلامية[١٤].

ومن بين أبرز المصادر الرسمية **"مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا"**[١٥] لعبد العزيز الفشتالي(ت١٠٣١هـ/١٦٢١م) مؤرخ الدولة ووزير القلم الأعلى على عهد المنصور[١٦]. وذهب في نفس المنحى أيضا أحمد بن القاضي(ت١٠٢٥هـ/١٦١٦م) صاحب **"المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور"**، الذي ألفه اعترافا بجميل هذا الملك على تخليصه من أسر القراصنة[١٧].

ونجد من المصادر الرسمية على كثرتها مصدرا مهما أرخ للعصر السعدي، تميز بنوع من الموضوعية وهو **"نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"** لأبي عبد الله محمد الإفراني أو اليفرني(ت١١٥٤هـ/١٧٤١م). ويأتي الاختلاف هنا من حيث أن صاحب المصدر ولد بعد زوال الدولة السعدية حوالي سنة ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م، مع أنه –كما يعتقد- كان من حاشية السلطان العلوي المولى إسماعيل[١٨]، الذي أثنى عليه وامتدحه في ختام النزهة[١٩]، وهذا ما جعله هو الآخر يتطبع برؤى المؤرخ الرسمي التقليدي، رغم أن النزهة لا تخلو من جرأة لم يتمتع بها غيره[٢٠].

- **المصادر التي تدخل في إطار كتابات المعارضة**، ولعل أبرزها **"تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية"**[٢١] لمؤرخ مهجول، والذي تناول روايات محظورة على المستوى الرسمي السعدي، رغم ما يمكن أن يحسب عليه من تحامل يعود ربما لأسباب سياسية، ويأتي هذا المصدر في سياق مخالف تماما للمصادر الرسمية التي سبق ذكرها.

- وتظل **المصادر الأجنبية** كذلك ذات أهمية كبيرة لما تضمنته من إشارات اجتماعية وسياسية غيبت في المصادر الرسمية، رغم ما احتوته من مغالطات ذات خلفية دينية. ويبرز من بينها مصدر مهم هو **"تاريخ الشرفاء"** للبرتغالي "دييگو دي طوريس"[٢٢]. وفي نفس الإطار، يدخل كذلك مصدر برتغالي آخر هو **"أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب"** لأنطونيو دي صلدانيا[٢٣].

كما أن **"المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب (S.I.H.M)"**، تضمنت مجموعة من التقارير والرسائل الديبلوماسية التي احتوت بين ثناياها بعض الإشارات المتعلقة بأوضاع السلطة السياسية وعامة المجتمع بالمغرب خلال الحكم السعدي.

- كتب **التراجم والفهارس**: وهي مصادر ذات أهمية بالغة كمادة تاريخية غنية تحظى بمكانة بارزة في التاريخ الاجتماعي. نظرا لكون أصحابها أكثر اعتدالا، ولم يكونوا مدفوعين بحافز الحصول على هبات من الأسر الحاكمة أو ذوي صلات بالشخصيات البارزة التي يؤرخون لها، باستثناء حين يكونون من أقرباء أو أصحاب المترجم له، وتتجلى أهمية هذه التراجم في ارتكازها

على القيمة الاجتماعية للصلحاء المترجم لهم ودورهم الكبير في الحياة الروحية والفكرية والسياسية[٢٤]، حيث أمكن من خلالها استخلاص معلومات تاريخية حول العامة وعلاقتها بالمخزن تكون قابلة للتوظيف، وذلك في وقت أخذ فيه تأليف السير والتراجم اهتماما لم يسبق له مثيل منذ القرن السادس عشر الميلادي[٢٥].

ومن بين أبرز تراجم هذه الفترة **"دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"** لصاحبه محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م)[٢٦]، الذي يعطي صورة واضحة عن الحياة العامة وإشارات مهمة حول الأوضاع الاجتماعية ككل وأوضاع العوام بشكل خاص، لاهتمام المتصوفة بهذه الفئة أو انتماء بعضهم إليها، كما يشير إلى مساوئ بعض السلاطين السعديين عبر الرشقات التي يوردها على لسان المتصوفة أو المجاذيب[٢٧]، وذلك رغم قربه من المخزن السعدي[٢٨]. وقد جرى على منواله في كتب التراجم وتكملة لعمله محمد الصغير الإفراني الذي ألف كتاب **"صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"**[٢٩].

ونجد كذلك تراجم أخرى مثل **"درة الحجال في أسماء الرجال"** لأحمد بن القاضي[٣٠]، **"جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس"**[٣١]. وبالإضافة إلى كتب التراجم هاته، يدخل كتاب **"روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"** لأحمد بن محمد المقري(ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)[٣٢]. ونجد كذلك في السياق نفسه كتابيّ **"التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر"**، و**"نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني"** لمحمد بن الطيب القادري(١٧١٢-١٧٧٣م)[٣٣]. بالإضافة إلى بعض فهارس مهمة اعتنت ببعض أقطاب الصوفية والعلم، من قبيل كتاب **"مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن"** لمحمد العربي الفاسي[٣٤]. زيادة على كتاب **"الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة"** لعبد الرحمان التمارتي (١٥٤٥-١٦٥٠م) [٣٥]. زيادة على تراجم وفهارس أخرى أقل أهمية من حيث المعطيات الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن نستقيها منها، عدا الاستعانة بها في تعريف بعض الشخصيات.

- **كتب الرحلات**، وجاءت بأوصاف دقيقة ومهمة لأحوال العوام في مختلف مناطق المغرب خلال هذه الفترة، ومن أبرزها **"وصف إفريقيا"** للحسن الوزان أو ليون الإفريقي[٣٦]. نجد في المقابل كتابا آخر من صنف الرحلات الجغرافية هو كتاب **"إفريقيا"** للإسباني "مارمول كربخال"[٣٧].

- بعض **كتب الفقه**: وتضمنت بين ثناياها جوانب من أحوال العامة، من خلال عدد من الفتاوي أو القضايا الفقهية لهذه الفترة، مثل **"معراج الصعود"** لأحمد بابا السوداني(ت١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) و**"شرح أرجوزة عبد الله الهبطي"** لأبي القاسم بن خجو(ت٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، ويُعَدّ عبد الله الهبطي(ت٩٦٣هـ/١٥٥٦م) وابن خجو من أبرز الفقهاء الذين أدركوا الفترة السعدية. لاسيما وأن كتابات الفقهاء تعدّ "خطاب المجتمع حول نفسه"، كونها اشتغلت بمشاكل الناس اليومية وتطلعاتهم المستقبلية وعلاقتهم بموروثهم الثقافي وبيئتهم ونمط عيشهم وطرق إنتاجهم، وذلك من خلال الإفتاء في علاقات الزواج والمعاملات التجارية والمالية وآليات الصناعة والفلاحة والرعي وشؤون أخرى[٣٨]، كما أنهم غالبًا ما كانوا يضمنون أسلوبهم مفردات وعبارات متداولة عند العامة[٣٩].

- كما تم الاعتماد -بالإضافة إلى ما سبق- على مجموعة من المراجع والرسائل الجامعية والدوريات المتنوعة المحلية والأجنبية التي ساعدت في إغناء البحث والمساهمة في تحليل معطيات المصادر، خاصة منها التي اعتمدت بشكل جزئي أو كلي مقاربة تاريخية اجتماعية وسياسية.

خطة وتصميم البحث

للإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه، تمت معالجته وفق خطة تتألف من مقدمة مفصلة توضح مختلف حيثيات البحث، إلى جانب مدخل وثلاثة فصول.

واشتمل **المدخل** "قراءة في المفاهيم والمجتمع" على مبحثين، حيث سعيت من خلال المبحث الأول إلى تحديد المفاهيم الرئيسة لموضوع البحث، والمتمثلة أساسًا في مفهومي العامة والمخزن وفق نظرة تاريخية واصطلاحية، إلى جانب التعريف بالمخزن السعدي ومساره وإطاره التاريخي، إضافة إلى المبحث الثاني "ملامح المجتمع السعدي وطبقتي العامة والمخزن" الذي كان الهدف منه إبراز مميزات ومكونات مجتمع العصر السعدي، وتموضع العامة والمخزن ضمنه، ثم المبحث الثالث "المظاهر الاجتماعية للعامة" الذي ضمنت فيه الخصوصيات الاجتماعية لطبقة العامة، مع الإشارة إلى بعض أحوال النخبة المخزنية من خلال الهوامش.

أما بالنسبة **للفصل الأول** من البحث الذي عنونته ب"فئات العامة وصلاتها بالمخزن السعدي"، فقد استعرضت فيه مختلف فئات عامة العصر السعدي وعلاقتها بالمخزن، وذلك بشكل أكثر تفصيلاً حسب كل فئة وتفاعلها مع هذه المؤسسة.

تطرقت في **الفصل الثاني** الذي يحمل عنوان "علاقة العوام بالمخزن السعدي على ضوء الأوضاع العامة" لعلاقة طبقة العامة بالمخزن السعدي من خلال مختلف الأوضاع السياسية والاقتصادية والقضائية والثقافية والعلمية والدينية، في محاولة لسبر أغوار مجمل أبعاد هذه العلاقة، وتشخيص مفارقاتها من وضع لآخر بعيدا عن نظرة المؤرخ الرسمي. لأنتقل بعدها إلى الفصل الثالث والأخير "تفاعل العامة مع الأمراء السعديين وانعكاساته"، والذي تكون من مبحثين، حيث تناول المبحث الأول منه دراسة تطور علاقة هذه الطبقة بشكل عام بالأمراء السعديين وفق مختلف مراحل عمر الدولة السعدية، على اعتبار أنهم أكبر عنصر مؤثر في سياسة المخزن، وتطرقت في المبحث الثاني من هذا الفصل لردود فعل طبقة العامة ضد هذه السياسة، وللأسباب والملابسات الحقيقية لحركاتها وانتفاضاتها المتعددة في وجه السلطة السعدية، والكيفية التي تعامل بها الأمراء السعديون معها، في محاولة للتجرد من الرواية الكلاسيكية والمخزنية وإنصاف بعض هذه الحركات وتاريخها.

إضافة إلى الخاتمة التي عملت في إطارها على الخروج بخلاصات واستنتاجات حول موضوع البحث وآفاقه وامتداداته المستقبلية.

نتائج البحث

من بين أهم الخلاصات والاستنتاجات التي توصلت إليها:

١- تعرض معظم شرائح العامة لشتى أنواع القهر والبطش والتهميش والتفقير تحت نير سلطة المخزن السعدي، الذي تميز حكامه ورجاله بالقسوة والاستبداد خلال جل مراحل عمره، بفعل ارتكازهم في الحكم على العنف وبث الخوف بين العامة التي شكلت معظم الرعية ومثلت بالنسبة إليهم مكمن الأخطار التي تهدد سلطتهم، على اعتبار أنها محرك أساسي للثورات ووقود لدعاة السلطة والانقلابات.

٢- أن تمرد العامة الذي أخذ في عدة أحيان طابعًا عنيفًا، ودعمها لطلاب الحكم لم يكن ليحدث إلا في سياق العنف المضاد والرد على تهميش أو استفزازات المخزن واستبداده الممارس بشكل أساسي عن طريق الاضطهادين العسكري والضريبي.

٣- عدم الجزم المطلق في الحكم على طبيعة العلاقة التي جمعت هذه الطبقة بالمخزن خلال الفترة السعدية، لا سيما أن قسما يسيرًا من بعض فئات العوام قد حاز على شيء من الحظوة، كجزء من الفقهاء أو النساء أو أهل الذمة من اليهود على سبيل المثال، والذين استفادوا من علاقاتهم بمختلف عناصر النخبة المخزنية. كما لا يؤكد أن كل هذه العناصر قد جمعتها علاقة نفور وتوتر مع العامة، لاسيما خلال أوقات الشدة والأزمات التي كانت تدفع في بعض الحالات جميع الطبقات إلى التآلف والتآزر من أجل تجاوز المحنة التي تغيب فيها أحيانا التراتبية، مادام أن الكل تقريبًا يقاسي من نفس الوضعية.

٤- أن المخزن ليس هو المسؤول الوحيد عن الوضعية المزرية للعامة وتهميشها، خاصة وأن عددا لا بأس به من رجالات السلطة السعدية أو المقربين منها أو الموالين لها قد أبانوا عن بعض المواقف الجليلة تجاه هذه الطبقة. مما قد لا يحلينا بالضرورة إلى حصر هذه العلاقة في زاوية الصراع الطبقي. بحيث ساهمت عوامل أخرى في ذلك، كتوالي سنوات الجفاف والأوبئة وتصاعد هجمات الإيبيريين، إضافة إلى التطاحن الداخلي حول السلطة سواء بين السعديين والوطاسيين في بداية نشأة الدولة، أو داخل الأسرة المالكة التي لطالما تصارع أمراؤها من أجل انتزاع الحكم، لاسيما في فترة الانحطاط. إلى غير ذلك من الأسباب. وإن كانت مسؤولية المخزن تبدو واضحة بشكل كبير خلال فترات الاستقرار والازدهار.

٥- أن موقف العامة لم يكن سليما في جميع أطوار وأوجه العلاقة مع المخزن، كما أنها لم تكن دائما الطرف المظلوم الذي كان فعله التاريخي مثاليًا وخاليًا من الهفوات، مادام أن بعض الفئات –مثل اللصوص وقطاع الطرق- كانت تتجاوز سلطة القانون وتخل بالنظام العام، بل وأسهمت بدورها -أحيانًا- في تأزيم الأوضاع والتأثير سلبًا على شق مهم من طبقة العامة ذاتها.

٦- الكشف عن جانب مهم من عورات التاريخ الرسمي وروايات السلطة السعدية، التي فرضت نفسها ورؤيتها لقرون عديدة حول أغلبية المجتمع وفاعله الرئيس المتمثل في العامة، هذه الطبقة التي لم تعدم أي دور في مختلف مناحي الحياة في العصر السعدي، في حين لم يسعفها الحظ في الدفاع عن مواقفها وإيضاح وجهة نظرها حول مجموعة من المحطات التي انفردت أو تشاركت فيها الفعل التاريخي مع المخزن، بفعل هيمنة وتفوق هذه

المؤسسة على كل المستويات، إلى جانب غياب الوعي الطبقي وضعف تبلور الفكر السياسي لدى العامة نفسها.

الهَوامِشُ:

(١) وقد برزت هذه المقاربة التاريخية الجديدة مع مدرسة الحوليات التي انطلقت مع "لوسيان فيفر Lucien FEBVRE" و"مارك بلوك Marc BLOCH" سنة ١٩٢٩، والتي تبنت موقفا شعوبيا في التعامل مع التاريخ مفاده ضرورة إعطاء مكانة أفضل لتاريخ ضعاف الحال إلى جانب تاريخ الأقوياء(أندريه بورغيار، **الأنثروبولوجيا التاريخية**، ضمن: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص. ٢٤٢)، وذلك في إطار التاريخ الاجتماعي الذي يضم في الوقت نفسه التاريخ الاقتصادي والتاريخ الثقافي -تاريخ الذهنيات-، في مقابل التاريخ التقليدي الذي يهتم بصورة خاصة بالأفراد وبالفئات العليا من المجتمع ونخبه (من ملوك وقادة ورجال دولة) وبالوقائع(الحروب والثورات) وبالمؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية التي تهيمن عليها النخب، فعلى النقيض من ذلك فالتاريخ الاجتماعي يهتم بالكتل الاجتماعية التي بقيت على هامش السلطة وأولئك الذين يقاسون منها، أي الناس البسطاء(فيليب أرياس، **تاريخ الذهنيات**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٢٨٢-٢٨٣)، وفي هذا السياق ظهر ما سمي بتاريخ الهامشيين أو المهمشين(جان كلود سميت، **تاريخ الهامشيين**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٤٣٧)، بحيث أعادوا النظر كذلك في التعامل مع التاريخ السياسي بوقائعه وأحداثه، على اعتبار أنه واجهة يتخفى وراءها الدور الحقيقي للتاريخ الذي تدور أحداثه في الكواليس وفي البنى الخفية التي يتوجب الكشف عنها وتحليلها وتفسيرها(جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٨٧).

(٢) حيث قاد هذا الاتجاه في العالم العربي محمود إسماعيل عبد الرزاق الذي اشتغل على إعادة قراءة تاريخ بعض حركات العوام والمهمشين التي تم التحيز ضدها في ظل الدولة الإسلامية خلال الفترة الوسيطية، وفق ما أسماه بالمنهج الاجتماعي التاريخاني، وذلك تبعا لرؤية شمولية تحيط بكافة الظواهر التاريخية على أساس الوحدة والتكامل(أحمد الطاهري: **عامة قرطبة في عصر الخلافة**، سلسلة المعتمد ابن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره رقم ٢، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٣)، وتبقى أهم الدراسات التي أنجزها في هذا الإطار: **"المهمشون في التاريخ الإسلامي"**، **"المهمشون في التاريخ الأوربي"**... ونقف هنا أيضا على أعمال قيمة لباحثين عرب آخرين: كفهمي سعد **"العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة"**، وحياة ناصر الحجى **"أحوال العامة في حكم المماليك ١٢٧٩-١٣٨٢م: دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية"**.

(٣) من بين هؤلاء الباحثين المغاربة أحمد المحمودي **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي"**، وأحمد الطاهري (**"عامة قرطبة في عصر الخلافة"**، **"عامة إشبيلية في عصر بني عباد"**)، إضافة إلى محمد ياسر الهلالي **"مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين ٨-٩هـ/ ١٤-١٥م مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة، الخاصة، الطبقة، المرتبة"**. وكذا إبراهيم القادري بوتشيش الذي وضع مجموعة هامة من الأبحاث التي تناولت بين ثناياها طبقة العامة، من بينها: **"مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس"**...

(٤) من قبيل هذه الدراسات التي تطرقت للعصر السعدي **"البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر"** لعبد الرحمان المودن.

(٥) على رأس هذه المؤلفات **"السياسة والمجتمع في العصر السعدي"** لإبراهيم حركات.

(٦) عرفت الفترة الحديثة بالمغرب كذلك بروز دراسات أخرى تميزت بنفس الخصائص السالفة الذكر مثل: **"المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام ١٨٢٢-١٨٥٩م"** لخديجة بن بوسلهام.

(٧) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور(قبل ٢٨ غشت ١٤٨١م-أكتوبر ١٥٤١م)**، الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص. ١٣٧.

(٨) صدرت هذه الأطروحة في شكل مؤلف تحت عنوان **"الفقراء في المغرب نماذج من القرنين ١٦-١٧م"**.

(٩) محمد استيتو، **الفقراء في المغرب نماذج من القرنين ١٦ و ١٧م**، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠٦، ص. ٥.

(١٠) وُضعت المصنفات الإسلامية على العموم استنادا إلى الإيديولوجية الرسمية، بتبني موقف معادي للعوام الذين شكلوا الطرف المحكوم والمتمرد أحيانا على السلطة الحاكمة، فجعلتهم في عداد المارقين والعصاة والخارجين عن الجماعة، أو يجبرون في بعض الحالات على الخضوع بالإكراه، فلا يكون لهم بذلك أي وزن في نظر المؤرخين الذين اعتبروهم مجرد سفلة وغوغاء، فيضعونهم بذلك على هامش التاريخ(إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص. ٢٨). لأن العامة ظلت تمثل في مخيالهم سواد الناس الذين لا يملكون السلطة ويعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والدينية المميزة التي تتدنى عن مستوى عالم "الخاصة"، ومن تم فإن إهمالهم وتهميشهم يبقى أمرا مشروعا حسب نظرتهم الضيقة (إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص. ١٧٦-١٧٧).

(١١) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، سلسلة التاريخ رقم ٥، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص. ٤٨-٤٩.

(١٢) نفسه، ص. ٥٠-٥١.

(١٣) نفسه، ص. ٥٣.

(١٤) تعود بشكل عام أسباب اتخاذ المصادر الإسلامية هذا الموقف المعادي والمهمِّش للعامة إلى ما يلي :

الاعتماد على النسق التاريخي الظاهري السكوني الذي قدم فيه التاريخ على شكل ركامات كمية من الأحداث في إطار أسلوب كمي تجزيئي منطلق في الغالب من موقع ذاتي أو طائفي أو طبقي أو إيديولوجي ضيق، محمد تضغوت، **مباحث**

في التاريخ العباسي: رؤية جدلية، مطبعة وراقة سجلماسة، مكناس، ٢٠٠٤، ص. ٥.

- حرص المؤرخ الرسمي على تماسك الأمة ووحدتها وتغطية التناقضات الاجتماعية، إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، **م.س**، ص. ٢٩.

-هيمنة فكرة البطل التاريخي، على اعتبار أن الأحداث من صنع الفرد المتمثل في الخلفاء والوزراء والأعيان، حيث شكل الخليفة عند المؤرخ "ظل الله في الأرض"(نفسه، ص. ٣٠)، إذ أقدموا على اختصار علاقة السلطان والرعية في إطار علاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على أساس التملك، ارتكازا على فاعلية السلطان وانفعالية الرعية التي لا تشكل سوى موضوع لذات السلطان وأداة لتحقيق رغبته عن طريق حاشيته(عز الدين العلام، **السلطة والسياسة في= =الأدب السلطاني**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص. ٥٧)، فيطرحون بذلك ضرورة السلطان لتجاوز الفتنة، بينما تبقى الرعية غير ذات فاعلية وضرورة ملحة (نفسه، ص. ٥٩).

- رغبة هؤلاء المؤرخين في الارتزاق والتملق للحاكم والطموح السياسي، نفسه، ص. ٥٧.

(١٥) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ١٩٧٢، ص. ٥.

(١٦) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٨٠.

(١٧) أسر ابن القاضي أثناء توجهه إلى الشرق لنشر محاسن الدولة السعدية واستكمال تكوينه العلمي بإيفاد من المنصور نفسه، حيث عانى في أسره مختلف أصناف التعذيب والتجويع والتكليف، أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٦، **ج ١**، ص. ٨٥،٤٨.

(١٨) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٨٩-٩٠.

(١٩) نفسه، ص. ٩٤.

(٢٠) ن.م.وص.

(٢١) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ١٩٩٤، ص. ٦.

(٢٢) كان مكلفًا باقتداء الأسرى المسيحيين بالمغرب، حيث مكث أزيد من ٣٠ سنة معايشا لأهم أحداث الدولة السعدية إلى حدود سنة ١٥٧٧م، دييگو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص. ٥.

(٢٣) يمثل هذا المصدر تسجيلاً لمذكرات شخصية لصاحبه المنحدر من أسرة برتغالية نبيلة، والذي أسر سنة ١٥٩٢م خلال إحدى الغارات البرتغالية خارج أسوار طنجة التي كان والده حاكما عليها، وتم نقله على عهد أحمد المنصور الذهبي إلى مراكش حيث ظل هناك إلى حين افتدائه سنة ١٦٠٩م، أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ٢٠١١، ص. ١٠،١١،١٣،٢١.

(٢٤) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٥٤-٥٥.

(٢٥) نفسه، ص. ١٥٠.

(٢٦) محمد بن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرآن القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، سلسلة التراجم ١، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص. ب/ ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ١٦٣.

(٢٧) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ١٦٤.

(٢٨) محمد بن عسكر، **الدوحة**، **م.س**، ص. ج.

(٢٩) يعتبر هذا الكتاب ذيلا لكتاب دوحة الناشر لمحمد بن عسكر، محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٢٣.

(٣٠) أحمد بن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧١، ج ١، ص. ٦،٨.

(٣١) أحمد بن القاضي، **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص. ٥.

(٣٢) أحمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٣، ص. ك.

(٣٣) محمد القادري، **النشر**، **م.س**، ص. ٥٣.

(٣٤) محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار إبن حزم، بيروت، ٢٠٠٨، ص. ٦.

(٣٥) عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي وتقديم محمد المنوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ص. ٢٤-٢٥.

(٣٦) هي التسمية التي ارتبطت به خلال فترة الأسر التي فرض عليه فيها التظاهر بالتمسح، حيث أنجز هذا الكتاب في ظروف الأسر بروما سنة ١٥٢٦ في كنف الكاردينال " Gilles de Viterbe"، باللغة العربية ثم ترجمه للغة الإيطالية، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص. ١٥،١٤،١١.

(٣٧) ألفه بعد سنة ١٥٧١م، وأخذ الكثير عن سابقه كتاب الوزان ونسج على منواله، كما يعتبر ذيلا مكملا له، مع تحريف واضح بسبب تعصب مارمول للمسيحية ضد الإسلام والمسلمين، مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٤، ج ١، ص. ٧.

(٣٨) إدريس كرم، **ثقافة العامة في كتابات الخاصة بالمغرب نموذج الفقهاء في القرنين ١٠ و١١ هـ**، ضمن: مجلة أبحاث (مجلة العلوم الاجتماعية)، العدد ١٥-١٦، السنة الخامسة، ١٩٨٧، ص. ٧٥.

(٣٩) نفسه، ص. ٧٦.